مديح يوحنّا الذهبيّ الفم للقديس بولس

تحقيق الأب أيوب شهوان
أستاذ مادة الكتاب المقدس في جامعة الروح القدس – الكسليك

تقديم

إذا ما استعرضنا مجملَ ما خلّفه لنا الذهبيّ الفم من مؤلّفات، تَبَيَّن لنا، وبشكل ملفت، أنّ للقديس بولس الرسول موقعًا هامًّا في فكره وحياته، في عظاته وتعاليمه؛ فهو لا يَمَلُّ من مدح بولس المرّة تلو الأخرى، ومن الاستزادة كلّما رأى ذلك مناسبًا، كما تشهد على ذلك آثاره المكتوبة التي تضجّ بالكلام العطر على رسول الأمم. ولدينا على ذلك برهانٌ من فمه بالذات، إذ يقول في مستهلّ عظته حول غُرَّة الشَّهْر عند الرومان ما يلي: "مؤخَّرًا، بينما كنتُ أمدحُ بولس الطوباوي، ارتعشتم فرحًا، وكأنكم رأيتموه هو بالذات حاضرًا أمامكم. أريد أن أعود اليوم أيضًا إلى الموضوع ذاته، الخ". من الواضح إذًا أنّ "رغبتَه في العودة تكرارًا إلى الموضوع ذاته" ترتبط بمسلسل من التعليم، وتشير بالتالي إلى ما خصّ به القديس بولس عندما وضع المدائح السبعة المرفوعة إلى هذا الأخير. ويبدو أكيدًا أنّ هذه المدائح قد أُلقِيَت في أنطاكيا، لأنّ الذهبيّ الفم يذكر، في المديح الرابع، اسمَ دَفْنِه (Daphné)، التي كانت ضاحية من ضواحي هذه المدينة؛ ويشهد، في بداية المديح السادس، أنه ألقاها متقاربةً الواحدة من الأخرى؛ مع هذا ليس من السهل تحديد تاريخ إلقائها بِدِقَّة.

لن يكون هنا ممكنًا إدراج كلّ المدائح الموجَّهَة إلى القديس بولس، لذلك سنكتفي بالأولى منها، نظرًا لغنى مضمونها، وتنوّع لوحاتها، وبُعدها التعليميّ الواضح المعالم. لقد نقلنا نصّها عن الفرنسيّة، آملين أن يُتاح لنا أو لغيرنا نقْل كلّ مدائح الذهبيّ الفم للقديس بولس إلى العربية[١].

العظة الأولى

لقد جمع القديس بولس، وبدرجة عالية، كلّ ما هو حَسَن وعظيم، ليس فقط بين الناس، بل أيضًا بين الملائكة. فهو يمتلك كلَّ فضائل هابيل، ونوح، وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وموسى، وداود، وإيليا، ويوحنا المعمدان، والملائكة. حقلٌ مزخرف جدًّا بالفضائل، بستانٌ روحيّ، بإمكاننا أن نقول ذلك من دون خشية، هكذا لمعت نفسُ بولس الطوباوي؛ فإلى الكثير من أزاهير النعمة الإلهية، عرف أن يضمّ حكمةً إلهيّة من هذه النعمة التي من فوق. لقد كان هذا إناءًا مختارًا؛ اجتهد بشكل مجيد في أن يتطهّر، فَسَكَبَ له فيضُ الروح كلَّ عطاياه. ومن هذا الينبوع دَفَّقَ لنا أنهارًا عجيبة، ليس فقط أربعة أنهار، كما في الفردوس، بل تيارات عديدة من المياه الروحيّة التي تجري باستمرار،

(١) بعد أن أنجزنا هذه الترجمة لنشرها على صفحات **مجلة بيبليا**، علمنا أنّ الخوري بولس الفغالي قد أدرج الموضوع عينه، ولكن بطريقة مختلفة وبالإيجاز، في مؤلّفه الذي ظهر حديثًا: **بولس الرسول بعد ألفي سنة**، سلسلة دراسات بيبلية ٣٦، لبنان ٢٠٠٨، ص ٤٠٢–٤٠٨، خاصة ٤٠٢–٤٠٥.

والـتـي لا تـروي الأرض، بـل تـوقـظ خِصْبَ الفضيلة في نفوس البشر. أيّ كلام لا يكون دونَ كمالٍ كهذا؟ أيّ كلام يقدر على أن يؤدّي مدحًا يليق بمَن ينبغي أن يُعَظَّم؟ إنّ كلّ الفضائل البشريّة مجتمعةً في نَفْسٍ واحدة، وكلّ واحدة من هذه الفضائل على أعلى الدرجات، ليس فقط الفضائل البشرية، بل تلك التي للملائكة، وكل كلمة عظيمة لا تكفي لِمدْح هذه العظمة كما يليق! لكن، أهذا سبب لكي نصمت؟ كلاّ، هذا، على العكس، سببٌ، وسببٌ حاسم لكي نتكلّم، لأنه الموضوع الأعظم للمديح الذي يتحدّاه كمالُ الفضيلة، ويفوق كلَّ مديح، وكلَّ استفاضة خطابيّة؛ وهزيمتنا هنا هي أفضل من كلِّ الانتصارات المحتملة للكلمة. من أين نبدأ مدائحنا؟ من أين، إنْ لم يكن بِتِبْيَانِ ما أَسْلَفْنا، وعرفنا أنه يمتلك الفضائل التي نراها في كلّ الناس؟ فإنّه، مهما كانت العَظَمَة التي أبْدَاها الأنبياء، أو الآباء، أو الأبرار، أو الرسل، أو الشهداء، إجمعوا كلّ هذه الفضائل، تجدون أنّ بولس قد أنتجَها كلَّها معًا في شخصه من جديد، وعلى درجةٍ عاليةٍ جدًّا من الكمال، إلى حدّ أنّه لا أحد، بما عنده من الأفضل، يستطيع أن ينافسه في ذلك.

١ – هابيل وبولس[٢]

أنظروا، لقد قدّم هابيل ذبيحة (تك ٤: ٤)، من هنا شهرةُ اسمه؛ ولكن إذا نَظرتم مَليًّا في ذبيحة بولس، لرأيتُم أنه يفوق الآخر كما تفوق السماءُ الأرض. وكون ذبيحة واحدة لم تَكْفِهِ، عن أيّة واحدة منها تريدون أن أكلّمكم؟ ففي كلّ يوم كان (بولس) يقدّم ذاته ذبيحةً (١كو ١٥: ٣١)، وكان يفعل ذلك بطريقة مضاعفة، فيموت كلّ يوم من أجل يسوع، ويجول في كلّ مكان لأجل ذلك (رج ٢ كو ٤: ١٠). كان يواجه دون كَلَلٍ المخاطر، ويضَحّي بنفسه بطيبة خاطر، مميتًا في ذاته الطبيعة اللحميّة، ذبيحة حقيقيّة لله، أو بالأحرى ذبيحة مفضَّلَة على تلك القديمة؛ فإنّه لم يكن يذبح عجولاً ولا نعاجًا، بل كان يضحّي بذاته كلَّ يوم، وبطريقة مضاعفة. من هنا الثقة التي كانت تدفعه إلى أن يقول: لقد تلقَّيتُ النَضْحَ لكي أُضَحَّى[٣] (٢ تيم ٤: ٦). إنّ هذا النَضْحَ يعني أنه قد أفاضَ دَمَهُ هو بالذات.

إعلموا جيّدًا أنّه لم يَكْتَفِ بهذه الذبائح، بل إنّه، وبعدما تكرّس كلّيًّا لله، قرّب أيضًا تقدمةً من الشعوب، ومن الأقطار، ومن البحار؛ لقد حَلَّقَ فوق بلدان الإغريق، فوق بلدان البرابرة، فوق كل المدى الذي تَلُفُّه الشمسُ، وكان يطير كَنَسْرٍ، كان يطير في كلّ مكان، ليس كمجرّد مسافر، بل كان يقتلع أشواك الخطايا، مُفيضًا كلمةَ التقوى، ومبدّدًا الضلال، وجالبًا الحقيقة. من البشر كان يصنع ملائكةً، أو بالأحرى من الأبالسة كان يصنع ملائكةً، هؤلاء كانوا بشرًا. أيضًا، قُبيل رحيله، وبعد عَرَقٍ كثير، وفوزٍ متكرِّر، ولكي يعزّي تلاميذه، كان يقول: "بل لو أنيّ أُراقُ على ذبيحة إيمانكم وخدمته، فَلأَفْرَحَنَّ وأبتهجنَّ معكم جميعًا. وأنتم أيضًا فافرحوا الفرح نفسه، وابتهجوا معي" (فل ٢: ١٧–١٨). أية ضحيّة تقدر إذًا أن توازي تلك التي ذَبَحَها بولس بسيف الروح، التي قدّمها على المذبح المُقَام في أعلى السماوات؟ لقد هلك هابيل بسبب فساد قايين وغَيظه القاتل (تك ٤: ٨)؛ من هنا مجدُ هابيل. أما أنا فَعَلَيَّ أن أبيّن لكم أنه، على قدر ما هناك من موتى، آلاف الموتى، على قدر ذلك أمضى هذا الرسول الطوباويّ من الأيام يبشّر بالرب. والآن، إذا كنتم تريدون أن تعتبروا موت بولس، ليس فقط الموت الروحانيّ، بل الحقيقيّ، فإنكم ستلاحظون أنّه، إذا كان هابيل قد قُتِل

(٢) عناوين المقاطع وأرقامها هي إضافة منا.

(٣) حرفيًّا: "أمَّا أنا فذَبيحَةٌ يُراقُ دَمُها وساعةُ رَحيلي اقتَرَبَت" (الترجمة المشتركة)، أو: "فهاءنذا أُراق، وقد حضر وقت انحلالي" (ترجمة الكسليك).

على يد أخٍ لم يكن له ما يتشكّاه منه، فإنّ بولس قد حماه أولئك الذين كان يريد أن يقتلعهم من شرورٍ لا عَدَّ لها، الذين لأجلهم قاسى كلّ ما تألّمه.

٢ – نوحٌ وبولس

كان نُوحٌ رجلاً صدّيقًا في وسطِ ناسِ زمانه (تك ٦: ٩)، ولم يكن له من مثيل بينهم جميعًا، وبولس كان دون مثيلٍ له بين الناس في كل الأزمنة. نجا نُوح وحده مع بنيه، وبولس، بدوره، رأى العالمَ مغمورًا تحت طوفان جديد أكثر رعبًا من القديم؛ لم يَصنع فُلْكًا من ألواح (خشبية)؛ وبدلاً من هذه الأخيرة، نظم الرسائل؛ لكنه لم يخلّص اثنين، أو ثلاثة، أو خمسة من أهله، بل خلّص من الخطر الكونَ كلَّه الذي كانت تغمره اللجج. لم يُحصَر فُلْكُه في عبور مكانٍ واحد، بل كان يضمّ الأرض حتى حدودها الأخيرة؛ إذاً، والآن أيضًا، يُدْخِلنا بولس في هذا الفُلْكِ الذي بُنِيَ لكي يخلّص الجماهير؛ الحَمْقَى المُعْدَمِينَ من العقل أكثر من انعدام الحيوانات يحوّلهم، جاعلاً منهم كائناتٍ أهلاً لأنْ تنافس القوات العُلْوية، وفي ذلك نَصْرٌ للفُلْكِ الجديد على فُلْكِ ذاك الزمان...؛ فهذا الأخير تلقّى غرابًا، وترك غرابًا يخرج منه؛ تلقّى ذئبًا، ولم يلطّف شهوة الافتراس لديه؛ أمّا بولس فقد صنع أفضل من ذاك، إذ تلقّى ذئابًا، فجعل منها نعاجًا، وحوّل البازَ والصقر إلى حمائم؛ كلّ ما كان غباوة وشهوة افتراس طرده من الطبيعة البشرية، وأحلّ مكانه نعومةَ الروح؛ والآن أيضًا يَعُومُ الفُلْكُ الذي لا ينكسر على الأمواج، إذ لا قدرة لعواصف الفساد على تشقيق ألواح كهذه: هو الفُلْكُ من يسود على الأمواج التي يمخرها، وهو الفُلْك مَن يسكت العاصفة؛ وهذا حقّ، فإنّ الذي يضمّ الألواح إلى بعضها ليس القار ولا الزفت، بل الروح القدس.

٣ – إبراهيم وبولس

أنظروا الآن إبراهيم: الجميع يُعْجَب به؛ عندما سمع هذه الكلمات: "أخرج من أرضك ومن قرابتك" (تك ١٢: ١)، ترك الوطنَ، والمسكن، والأصدقاء، والأهل؛ لقد كان أَمْرُ اللهِ كلَّ شيء بالنسبة إليه. نحن أيضًا، واعلموا ذلك جيّدًا، نبدي إعجابَنا بهذه الطاعة. ولكن مَن يستطيع أن يُقارنَ ذاتَه مع بولس؟ فهو لم يترك لأجل يسوع وطنَه، ومسكنَه، وأهلَه فقط، بل العالَمَ بالذات؛ أكثر من ذلك، احتقر السماء بالذات، وسماء السماء، ولم يَسْعَ إلاّ في إِثْر شيء واحد، هو محبّة يسوع. إسمعوه هو نفسه يبيّنه لكم، يقوله لكم: "لا الأشياء الحاضرة ولا المستَقبَلة، ولا علو ولا عمق... تقدر أن تفصلنا عن محبّة الله" (روم ٨: ٣٨ و٣٩).

قد يُقال إنّ إبراهيم، إذ عرّض ذاته للمخاطر، انتزعَ ابنَ شقيقه من يد الأعداء، لكنّ بولس لم يخلّص فقط ابن شقيقه، ولا ثلاث وخمس مُدُن، بل الأرض بكلّيّتها، ولم ينتزعها من أيدي البرابرة، بل من أيدي الأبالسة بالذات، مواجهًا كلَّ يوم أخطارًا لا عَدَّ لها، على حساب مِيتاتِه الخاصّة، ومؤمّنًا للآخرين أمانًا كُلّيًّا. لكن، هل كمال الفضيلة وإكليل الحكمة يعودان إلى مَنْ ضحَّى بابنه؟ هنا أيضًا، سنجد أن المقام الأولّ يعود إلى بولس؛ فهو لم يُضَحِّ بابنه، بل بذاته، وأكثر من ألف مرّة، كما قلتُ قبل قليل.

٤ – إسحق وبولس

بماذا نعجب في إسحق؟ بين الكثير من الفضائل، صَبْرُه؛ فقد كان يحفر آبارًا، وكان يُطْرَدُ من ممتلكاته (تك ٢٦: ١٥، ١٨، ٢٠، ٢٢)، ولم يكن يُقاوِم؛ وكلّما كانت الآبار تُمْلأَ، كان ينتقل إلى مكان آخر؛ لم يكن يَنْقَضّ، مع كلّ ذويه، على الذين كانوا يعذّبونه، بل كان ينسحب، تاركًا في كل مكانٍ الأراضي التي كانت له، كي يُشبعَ جَشَعَ أعدائه. أمّا بولس فلم يَرَ فقط أبارًا، بل جَسَدَه الخاصّ مغطًّى بحجارة مكدّسَة فوقه؛ لم ينسحب كإسحق، بل كان يذهب إلى الذين كانوا يرجمونه؛ كان يريد، وبكلّ قوّة أن يخطفهم معه إلى السماء. وعلى قدْر

ما كان ينبوع النِعَم هذا يُسَدّ، على قدر ذلك كان يتدفّق بقوّة، وعلى قدر ذلك كان يسكب من هذه المياه التي تعطي الصبر.

٥ - يعقوب وبولس

لكنّ ابنه يعقوب، في الكتاب المقدّس، يثير الإعجاب بقوّته الكامنة في نفسِه. أيّ نَفْس من الماس تستطيع أن توازي صبرَ بولس؟ ليس هذا عبوديةً لمدّة أربع عشرة سنة، بل ما يوازي مدّةَ حياته كلّها، وقد قاساها لأجل عروسة المسيح؛ فهو لم يُحْرَق بحَرِّ النهار وبجليد الليل فقط، بل تألّم ألف مرّة بسبب الثلوج، والأمطار، وبَرَد المحنة؛ يومٌ يتلقّى ضرباتِ السَوْط، ويومٌ الحجارةَ وهي تتساقط على كلّ أعضائه، يومٌ آخر أيضًا كان عليه أن يصارع الوحوش المفترسة، ومرة أخرى الأمواج العاتية، وليلاً نهارًا الجوع والبَرْد؛ في كلّ مكان، ومقابل ألف معركة، كان ينتزع (٢كو ١١: ٢٣-٣٣) النعاج من فم إبليس.

٦ - يوسف وبولس

أمّا يوسف فكان الطُهْرَ بالذات! قد أخشى ما يثير السخرية، إذا ما عظّمتُ، انطلاقًا من هنا، مَن صَلَبَ ذاتَه لأجل العالم (غل ٦: ١٤)، والذي لم يكن ينظر فقط إلى ما في الأجساد من مُغْرٍ، بل كلّ الأشياء البشرية بذات العين كما الغبار والرماد؛ كان كميْتٍ لا إحساس لديه أمام ميت. وإذ كان دقيقًا ومتنبّهًا إلى رَدْعِ كلِّ وَثَباتِ الطبيعة الفاسدة، لم يُعَانِ أبدًا، ولا في أية مناسبة، أيًّا من هذا الضعف الذي تخضع له سرعةُ العطب البشرية.

٧ - أيوب وبولس

هل يثير أيوبُ الإعجاب لدى كلّ الناس؟ نحن بحقّ نبدي إعجابنا بهذا المصارع العظيم، الذي يمكن مقارنته مع بولس من حيث صبره، وطهارة حياته، والشهادة التي أدّاها لله، لا بل بالبسالة التي أظهرها في جهاد شهير، وبالنصر العجيب الذي كلّل معاركه. لكنّ معارك بولس لم تدم عدّة أشهر فقط، بل عدّة سنوات؛ لم يكن يمسح بالخَزَفات ما ينزّ ويخرج فاسدًا من أعضائه؛ لم يكن يبقى ممدّدًا على المزبلة، بل كان يهاجم فم الأسد الروحيّ، وألْف ألف مرّة، مجاهدًا ضدّ التجارب؛ كان أصلب من صخر. لم يكونوا فقط ثلاثة أصدقاء، أو أربعة، بل كلّهم كانوا يهينونه: جاحدون، وإخوة كَذَبَة، ومستهزئون، ومحقّرون. لكن هل كانت ضيافة أيوب رائعة، كما أيضًا همّه تجاه الفقراء؟ نتحفّظ جيّدًا على أن ننكر ذلك، لكننا نجد كلّ ذلك أدنى من فضائل بولس، كما الجسد هو أدنى من النفْس. ما كان أيوب يصنعه للأجساد العليلة، كان بولس يمارسه للأنفس المريضة، مقوّمًا كلّ الأذهان العرجاء، وموشّحًا العقول الفقيرة العارية بثوب الحكمة. وإذا ما اعتبرنا المنافع بالذات التي تتوجّه إلى الأجساد، كان لبولس كلّ التفوّق الذي يرفع الجائع والفقير، مُعينًا العَوَز، إلى أعلى من الغنيّ الذي يعطي ممّا يفيض عنه. كان مسكن أيوب مفتوحًا لكل مَن يأتي إليه، أمّا نفْسُ بولس فكانت تتفتّح للأرض برمّتها، إذ كان يُقيم استقبالاً لجميع الشعوب. من هنا كلماته: "لم تَضِق أحشائي لأجلكم، لكنّ أحشاءكم ضاقت لأجلي"(٤).

كانت لأيوب قطعانٌ لا عَدَّ لها من العجول والنعاج، وكان نديَّ الكفّ تجاه الفقراء؛ أمّا بولس فلم يكن يمتلك شيئًا سوى جسده، لكنه كان يجد فيه ما يسدّ به حاجات المعوزين؛ من هنا كلماته: "هاتان اليدان قد خَدَمَتَا حاجاتي وحاجات الذين كانوا معي" (أع ٢٠: ٣٤). كان ينسب دَخْلَ عمل

(٤) حرفيًّا: "لستم متضايقين بسببنا، لكنكم متضايقون في داخلكم" (ترجمة مارونية)؛ "لستم عندنا محصورين، بل في داخلكم أنتم محصورون" (ترجمة الكسليك).

يديه إلى الفقراء وإلى البؤساء الجياع. لكن الديدان والكلوم كانت تسبّب لأيوب آلامًا قاسية لا تُطاق؛ أنا أوافق، لكن إذا ما قارنتم معها ضربات السوط التي تلقّاها بولس خلال العديد من السنوات، والجوع المتواصل، والعري، وقيود الحديد، والسَجْن، والأخطار، والمؤامرات التي كان يحوكها ضدّه أقرباؤه، والغرباء، والطُغاة، والأرض برمّتها، وأضيفوا إليها آلامًا أَمَرَّ أيضًا، أعني الآلام التي عاناها لأجل الذين يسقطون، والقلق على كل الكنائس، والنار التي كانت تلهبه في كلّ مرّة كانت هناك عثرة، ترون أنّ النفْس التي كانت تقاسي كل هذا كانت أصلب من صخر، وكانت لها القوّة لتنتصر على الحديد وعلى الألماس. ما قاساه أيوب في جسده، تحمّلَتْه نفْسُ بولس، وكلُّ ديدان أيوب كانت تعذّبه بقساوة أقل ممّا كانت تفعله رؤية المعاثر في نفْس الرسول الطوباوي. من هنا، منابع الدموع التي كانت تتدفّق باستمرار من عينَيْه، ليس فقط خلال ساعات النهار، بل الليل، وليس هناك من امرأة، فريسة آلام الإيلاد، تتمزّق بألمٍ أكبر من ألمه. وكان يقول: "يا أولادي الصغار، الذين لأجلهم أشعر من جديد بآلام الإيلاد" (غل ٤: ١٩)(٥).

٨ – موسى وبولس

مَنِ الذي، بعد أيوب، نبدي إعجابنا به؟ موسى، بالتأكيد، لكنّ هذا الأخير أيضًا يرى بولسَ فوقَه بكثير. من بين فضائل عظيمة وعديدة، إنّ ما يوجد في نفس موسى القديسة هذه إلى هذا الحدّ، والتي ترفعه خاصة، وهي إكليله، هو أنه أراد أن يُمْحى من كتاب الله من أجل خلاص اليهود (خر ٣٢: ٣٢). لكن، هل أراد موسى أن يَبيد مع الآخرين؟ إنّ بولس قد وافق –لأجل الآخرين، وليس معهم، كونهم مخلَّصين– على أن ينحطّ عن المجد الأبديّ. لقد جاهد موسى ضدّ فرعون، لكن بولس كان يصارع ضدّ إبليس كلّ يوم؛ الأول كان يتحمّل كلّ أتعابه لصالح شعبٍ واحد، أما الآخر فكان يقاسي العناء الأقسى لصالح الأرض كلّها، وكان يغطّيه ليس العرق فقط، بل، وبدل العرق، الدم الذي كان يجري من كلّ جسده؛ لم يكن يجتاز فقط البلدان المأهولة، بل الأماكن غير المأهولة أيضًا؛ ليس فقط اليونان، بل أصقاع البرابرة أيضًا.

٩ – يشوع (بن نون)، وصموئيل، والأنبياء وبولس

بإمكاني أن أعرض أمامكم يشوع (بن نون)، وصموئيل، والأنبياء الآخرين، ولكن، من أجل أن لا أُطيل هذه الخطبة، فلن نعرض إلا الرئيسيّين منهم؛ فإن كان بولس يبدو أسمى منهم، فلن يعود هناك مجالٌ للشك في تفوّقه على الآخَرين.

مَن هم الرئيسيون بين الأنبياء؟

بعد أولئك الذين تكلّمنا عليهم، مَن هم، إن لم يكونوا **داود، وإيليا، ويوحنا**؛ أحدهم هو سابق للمجيء الأول، والآخر لمجيء الرب الثاني، وبالتالي يُدْعَى هذا وذاك إيليا. ما الذي يميّز **داود**؟ إنهما تواضعه ومحبّته لله؛ ولكن، أبهذين الأمرَيْن هو متفوّق على بولس، الذي لا يبقى دونَه؟ ماذا لدى **إيليا** من مثير للإعجَاب؟ أنه أغلق السماء، أتى بالجوع، أنزل النار؟ أنا لا أعتقد! فَلْنُبْدِ إعجابَنا به بمحبّته للربّ، محبّة حارقة أكثر من النار. لكن، إذا ما اعتبرتم غيرة بولس، لوجدتموه مساويًا لإيليا بالسموّ، وهو يعلو على الأنبياء الآخَرين. فماذا يمكننا أن نقارن مع هذه الأقوال التي كانت توحيها لبولس غَيْرتُه على مجد الرب، أي "أودّ أن أكون أنا نفسي محرومًا، مفصولاً عن المسيح، في سبيل إخوتي، أقربائي بالجسد" (روم ٩: ٣)؟

ولأنّ السماوات والأكاليل وكل جوائز المعركة قد اقتُرِحَت عليه كهدف

(٥) "يا أولادي الذين أعود أتمخّض بهم حتى يُصَوَّر المسيح فيكم" (ترجمة الكسليك).

لجهوده، فقد كَبَح شهوته وصَبَرَ: "من المفيد أكثر أن أبقى متّحدًا بهذا الجسد" (فل ١: ٢٤).

كذلك، لا تبدو لبولس الخليقة المرئية ولا الخليقة التي يتخيّلها العقلُ كافيتَيْن للتعبير عن كلّ قوّة محبّته وغَيْرته؛ كان يتصوّر طريقة أخرى للوجود، وكان يذهب إلى حدّ افتراض المستحيل، ليعبّر هكذا عمّا كان يشتهي. لكنّ يوحنّا كان يغتذي من الجراد ومن عسل البرّ (مت ٣: ٤)، لكنّ بولس، في وسط مساكن الناس، عاش كيوحنّا في الصحراء؛ لم يكن يأكل الجراد ولا عسل البرّ؛ كان غذاؤه أكثر بدائية؛ لم يكن يأخذ حتىّ الغذاء الضروريّ للحياة لأنه كان مأخوذًا بغَيْرة التبشير. لكنّ يوحنّا أظهر في وجه هيرودوس حريّة كبيرة في الكلام (مت ١٤: ٤)، أما بولس فلم يهاجم طاغيةً واحدً، أو اثنين، أو ثلاثة، بل آلاف الطغاة، كهيرودوس مثلاً، الذين أسكتَهم، وَلْنَقُلْ بطريقة أفضل، طغاة أكثر وحشيّة أيضًا.

١٠- بولس والملائكة

لم يبقَ لنا سوى المقارنة بين بولس والملائكة؛ لِنَدَعْ، إذًا، تحت أقدامنا، الأرض؛ لِنَصْعَدْ إلى أعالي السماوات، ولا يَشْكُوَنَّ أحدٌ جرأةَ خطابنا، فإنّه، إن كان الكتاب المقدس قد أعطى يوحنا اسمَ "ملاك"، كما أعطاه للكهنة، فما الذي يُثير العجَب أن يُقارَن من قِبلنا الذي يتفوّق عليهم جميعًا بالقِوى العليا؟ على ماذا تقوم عظمة الملائكة؟ على أنهم يعتنون جيّدًا بأن يطيعوا الله. إنّ ما يعبّر عنه داود هكذا، في تعجّبه: "قوى مملوءة قوة، تنفّذ ما يقوله" (مز ١٠٢: ٢٠). تلك هي العظمة التي لا تُقارن، حتى لو كانت عشرة آلاف مرّة غير جسدانية؛ إنّ أعلى درجة من طوباويّتهم، هي هذه: إنها طاعتهم، وهو أنّ هذه الطاعة ليست أبدًا ناقصة. بولس أيضًا حفظ تلك الطاعة الكاملة؛ فإنه لم يتمّم فقط كلام الله، بل وصاياه، وأكثر من وصاياه، وهذا ما بيّنه بهذه الكلمات: "إذًا فأيّ أجرٍ لي؟ هو أنّي، حين أبشّر، أمْنَحُ الإنجيلَ مجّاناً" (١ كو ٩: ١٨). ما هي أيضًا العَظَمة التي يُعْجَب بها النبيّ في الملائكة؟ "الذي يجعل ملائكته أرواحًا، وخدّامه لهيب نار" (مز ١٠٣: ٤). بولس هو الدليل الواضح على ذلك؛ كنسيم، وكنار، عَبَرَ العالمَ كلَّه وطَهَّرَه. لكنّه لم يَنَلْ بعدُ السماء. هذا ما هو بالحصر عجيبٌ بكلّ معنى الكلمة. أيضًا على الأرض، رجل كهذا، في جسد مائت، كان يضارعُ القوى غير الجسديّة فضيلةً.

الخاتمـــة

أيّ شجب إذًا قد لا نستحق نحن لدى رؤية إنسان جمع في ذاته وحده كلّ الفضائل، ولا نجهد ذاتنا في اقتفاء ما هو أقلّ من تلك التي مارسها؟ فلنفكّرْ في ذلك، ولنعملْ على أن نُفْلِتَ من تهمة كهذه، ولنجهد ذاتنا للوصول إلى هذه الغَيرة، من أجل أن نتمكّن من أن نحصل على الخيرات ذاتها، بنعمة ربنا يسوع المسيح وصلاحه، الذي له المجد والقدرة، الآن ودائمًا، وإلى أبد الآبدين، آمين.